University of Benghazi
Faculty of Education Almarj

جامعة بنغازي
كلية التربية – المرج
ISSN 2518-5845

Global Libyan Journal

المجلة الليبية العالمية

العدد الثاني والخمسون / يوليو / 2021

" ثورة نيقا (النصر) سنة 532م وآثارها على الإمبراطورية البيزنطية"

د.انتصار خالد هزاوي / قسم التاريخ –كلية الآداب- جامعة عمر المختار البيضاء – ليبيا /

University of Benghazi
Faculty of Education Almarj

جامعة بنغازي
كلية التربية – المرج
ISSN 2518-5845

Global Libyan Journal

المجلة الليبية العالمية

العدد الثاني والخمسون / يوليو / 2021

" ثورة نيقا (النصر) سنة 532م وآثارها على الإمبراطورية البيزنطية"

المخلص:

واجه الإمبراطور جستنيان الأول (527-565 م) بعد توليه الحكم بخمس سنوات ثورة في العاصمة قسطنطينية كادت تحرمه من عرشه، عرفت هذه الثورة بثورة نيقا، وتستند الأحداث التي أدت إلى هذه الثورة إلى اعتقال أنصار حزبي الزرق والخضر -وهما الحزبان اللذان انقسم إليهما أهل قسطنطينية، حسب الثياب التي كان يلبسها راكبو خيول السباق في ملعب قسطنطينية- في الحادي عشر من يناير عام 532م، واشتعلت النيران في قسطنطينية في أعنف أعمال شغب شهدتها طوال تاريخها، وقُتل فيها الكثير، وتعرض بسببها أجمل المباني للحرق والتدمير، وكان من ضمنها كنيسة آيا صوفيا.

تدرس هذه الورقة ظهور حزبي الزرق والخضر باعتبارها كيانات اجتماعية وسياسية في الإمبراطورية البيزنطية، كما تدرس دور سياسة جستنيان وما ترتب عليها من فرض ضرائب باهظة على الشعب، وتقاعسه عن تلبية مطالبهم التي كانت سببًا مباشرًا في اشتعال هذه الثورة. ستوضح هذه الدراسة أيضًا أنه على الرغم من أعمال شغب نيقا والدمار الذي حلَّ بقسطنطينية، فإن هذه الثورة مثَّلت البداية الحقيقية لعصر جستنيان.

الكلمات المفتاحية: الإمبراطور جستنيان الأول ، حزبي الزرق والخضر، الهبدروم، مجلس الشيوخ، قسطنطينية.

Abstract:

The Emperor Justinian faced a frightful rebellion in the capital which nearly deprived him of the throne, this riot was known as the Nica revolt. The events that led to this revolution are based on the arrest of supporters of the Blue and Green parties - the two parties that the people of Constantinople were divided into according to the clothes that the riders wore - in the Hippodrome. On January 11, 532 AD, a fire broke out in Constantinople in the most violent riots that Constantinople witnessed throughout its history, many people were killed and the most beautiful buildings were burned and destroyed, including the Church of Hagia Sophia.

This paper examines the emergence of the Blue and Green parties as social and political entities in the Byzantine Empire. It also studies the role of Justinian's policy, imposing heavy taxes on the people and his failure to meet their demands, which was a direct cause of this revolution. This study will also clarify that although the Nica riots and the destruction that befell Constantinople, this revolution represented the true beginning of Justinian's era.

Keywords: The Emperor Justinian, Blue and Green parties, Hippodrome, Senate. Constantinople

المقدمة:

عندما تولى الإمبراطور جستنيان الأول (527-565 م) الحكم لم تكن الإمبراطورية البيزنطية قد تغلبت على الأزمات التي تعرضت لها منذ نهاية القرن الخامس الميلادي. فقد اشتدت هذه الأزمات في عهد الإمبراطور جستن (518-527م)؛ إذ جدَّد الفرس هجومهم ضد الإمبراطورية البيزنطية. وفي العاصمة قسطنطينية كانت الفوضى ضاربة أطنابها بسبب المشاكل الإدارية وكثرة الضرائب، بالإضافة إلى ازدياد الخلاف بين حزبي الخُضر والزرق الذي امتد أثره إلى العرش الإمبراطوري، وأصبح يهدد بالانفجار.

حدثت ثورة نيقا Στάση του Νίκα (وتعني النصر باليونانية) في العاصمة قسطنطينية على مدار أسبوع في يناير عام 532م، وتعد هذه الثورة من أكثر الثورات إراقةً للدماء وتخريبًا للبلاد، انتفض الشعب ثائرًا بسبب الديون المالية وتنفيذ قوانين ضريبية جديدة باهظة، وتقاعس الإمبراطور جستنيان عن تلبية مطالب الشعب برفع المظالم عنه، فكان أسبوع أحداث شغب نيقا أكثر الأحداث حسمًا في عهد الإمبراطور جستنيان الأول، وكادت هذه الأحداث أن تطيح بحكم الإمبراطور، وأدت إلى دمار الكثير من مرافق قسطنطينية.

جذبت الثورة التي اندلعت في قسطنطينية عام 532م انتباه المؤرخين الغربيين الذين أجمعوا على أن ثورة نيقا كانت هبَّة شعبية لجمهور الرياضة والمضطهدين والمتأزمين اقتصاديًّا، وأنها كانت سببًا مباشرًا في توسيع الإمبراطورية وإصلاح الدولة، وعلى الرغم من الدراسات القيِّمة حول هذا الموضوع فإن الحاجة مازالت ملحَّة لمزيد من الدراسة؛ لتوضيح دور فرق سباقات العربات التي اشتهرت باسم الطوائف(demes)، وظهورها قوى اجتماعية وسياسية بين أفراد الشعب، ودور رجال السناتو Senate (مجلس الشيوخ) في هذه الثورة.

هدف الدراسة:

تعد أحداث ثورة نيقا من الموضوعات الجديرة بالدراسة؛ لأنها حلقة مهمة من حلقات التاريخ البيزنطي؛ لذا فإن هذه الدراسة تستهدف إلقاء الضوء على المتغيرات السياسية، والأحداث التي أدَّت إلى اندلاع واحدة من أسوأ الثورات في التاريخ الوسيط.

أهمية الدراسة:

وتأتي أهمية دراسة هذه الثورة من أنها شهدت أحداثًا جسيمة ومهمة أثَّرت في مستقبل الإمبراطورية البيزنطية.

تساؤلات الدراسة:

1- ما الأسباب التي تكمن وراء ثورة نيقا؟

2- ما مدى دور مجلس الشيوخ في الثورة؟

3- لماذا تعد ثورة نيقا بداية حقيقية لعهد جستنيان؟

ولتحقيق الهدف المذكور أعلاه تقسَّم الورقة على ثلاثة محاور:

المحور الأول: نشأة الفرق الرياضية وتطورها.

المحور الثاني: دور مجلس الشيوخ في ثورة نيقا

المحور الثالث: مرحلة ما بعد الثورة، وما صاحبها من تطور.

نشأة الفرق الرياضية وصعودها كيانًا اجتماعيًّا سياسيًّا:

قبل عهد الإمبراطور أغسطس Augustus، (27ق.م-14م) كان سباق العربات يقام داخل مدرج رئيس أمام آلاف الأشخاص، ويشجع الجمهور فرق السباق، وتقام الرهانات في أثناء السباق حول أي فريق سيفوز، وكثيرًا ما اندلعت المعارك داخل سيرك ماكسيموس Maximus وخارجه في روما بين أنصار فرق مختلفة (انظر الشكل رقم 1)، ثم ظهرت بعد ذلك فرق جديدة، وهي: الحمر والبيض والزرق والخضر، وعلى الرغم من أن الأصول المباشرة للفرق وألوانها غير مؤكدة، فمن المؤكد أن هذه الفرق الأربعة قد أُنشئت رسميًّا، وبدأت إلى حدٍّ ما في وقت قريب من فترة أغسطس [1]

الشكل رقم 1: سيرك ماكسيموس في روما

Lookandlearn.com

يشير [3] إلى حرص أباطرة الرومان في الشرق على ألَّا تبدو عاصمتهم الجديدة أقل أُبَّهةً وجمالًا من روما، فعملوا على تشييد الكنائس والحمَّامات والملعب (الهبدروم) الذي كان ميدانا لسباق الفرق الرياضية، أهمها سباق الخيل (انظر الشكل رقم 2)، وكانت العربات تُزَيَّن بأربعة ألوان: (الأزرق، والأخضر، والأبيض، والأحمر)، (انظر الشكل رقم 3) وتتنافس فيما بينها. وكان ملعب قسطنطينية هو المكان الذي يلجأ إليه الجمهور للتعبير عن آرائهم السياسية والاقتصادية والدينية.

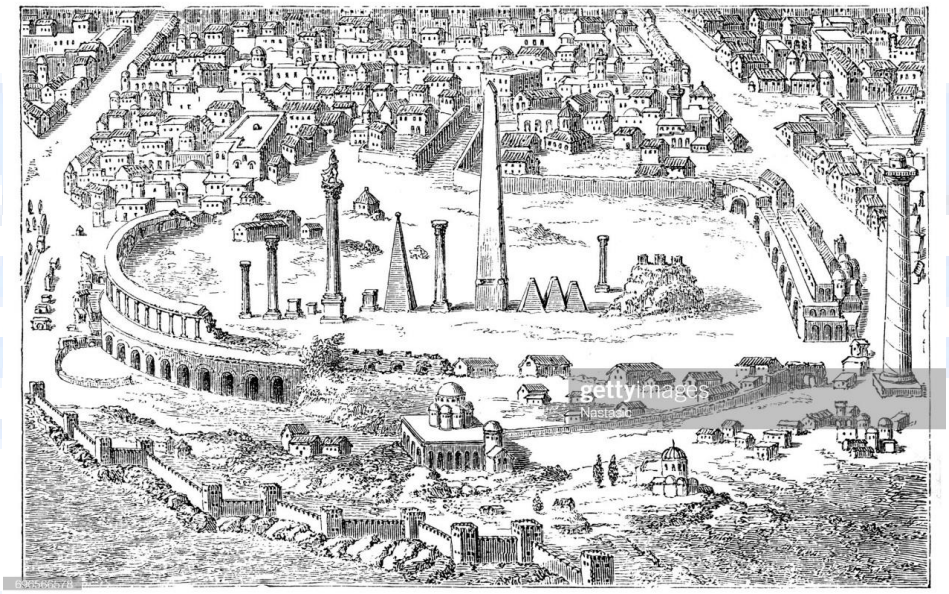

الشكل رقم 2: صورة لميدان السباق في قسطنطينية

Gettyimage.com

الشكل رقم 3:عربات الفرق الرياضية

Mikedashistory.com

وبحلول منتصف القرن الرابع الميلادي كان من الواضح أن التنافس بين الفرق قد امتد خارج حدود ثقافة السباق، ووصل رسميًا إلى المشهد السياسي والديني. كانت الحكومة هي من تقوم بتعيين زعماء الأحزاب، وأصبحت الأحزاب تؤدي خدمات مهمة للحكومة، مثل حراسة المدينة، والمساهمة في إصلاح أسوار المدينة، والقيام بعمل الشرطة أيضًا.

يرى [16] أنه بمرور الوقت انضمَّ البيض إلى الزرق، وانضم الحمر إلى الخضر، وأصبح هناك كيانان اجتماعيان وسياسيان ويضيف [16]كان فريق الزرق يمثل طبقة كبار الملاك التي تؤيد المذهب الخلقدوني (وهم أنصار مجمع خلقدونيا 451 الذين يؤمنون أن للمسيح طبيعتين: إلهية وبشرية بلا اختلاط ولا تغيير، وبلا انقسام ولا انفصال). وفريق الخُضر يمثل طبقة أرباب الحرف التي تؤيد المذهب المونوفستي (وهم أصحاب المذهب القائل بأن للمسيح طبيعة واحدة وهي الطبيعة الإلهية، وأن الطبيعة البشرية امتزجت بها، وهذه الفكرة معارضة لعقيدة مجمع خلقدونيا). في منتصف القرن الخامس تأثرت الحياة السياسية بالتنافس بين الحزبين. وعليه وضعت الحكومة في اعتبارها أهمية هذين الحزبين، اللذين إذا أيَّد أحدهما الحكومة اتخذ الحزب الآخر موقفًا معارضًا. وفي بعض الأوقات يتحد الحزبان معًا للدفاع عن حريتهما، ولمناهضة استبداد الإدارة المركزية.

قبل نهاية عهد الإمبراطور أناستاسيوس Anastasus (491-518م) أثبتت هذه الفرق قوتها بالأعداد، لكن الأهم من ذلك أنها أصبحت تهديدًا مباشرًا للأباطرة، ففي عام 511م يبدو أن تأييد أناستاسيوس للمذهب المنوفستي، وتشجيعه لطبقة الصناع والحرفيين (الخُضر) أدَّى إلى تذمُّر الناس، الأمر الذي دفع الزرق إلى التظاهر ضده في الهبدروم، وتعرض الإمبراطور للشتائم والقذف بالحجارة ونادوا بسقوط أناستاسيوس، ولكن الإمبراطور عالج الأمر بالتقرب إليهم[16]. في عام 513 تفاقم الأمر، وذلك حين تقدم القائد فيتاليان Vitalian بجيوشه من تراقيا نحو قسطنطينية، وأبدى الزرق مساندتهم لفيتاليان، غير أن أناستاسيوس وصل إلى حل معهم من أجل استقرار حكمه[11]. يذكر [1] أن خليفته جستنJustin (518-527م) اتخذ نهجًا معاكسًا تمامًا في تعامله مع الفرق، إذ سمح لهم بالمضيِّ دون رادع على الإطلاق. وخلال فترة حكمه في أواخر 519 وأوائل 520 خرجت الفرق عن السيطرة ووصلت إلى ذروتها الاجتماعية والسياسية. في 520 تورط الزرق في أعمال شغب قُتل فيها القائد البيزنطي فيتاليان vitalian ، ويضيف [1] من المعلوم أن حكم جستن قد طغى عليه الدور الذي لعبه جستنيان في فترة حكمه إمبراطورًا مشاركًا، إذ قدم جستنيان دعمًا ماليًّا ومعنويًّا هائلاً للزرق عندما كان جستن إمبراطورًا، وكان من المتوقع أن يستمر جستنيان على هذا النهج عندما أصبح إمبراطورًا. وبعدما اعتلى جستنيان العرش تأججت الخلافات بين الفرق الرياضية، وامتد أثره إلى البلاط الإمبراطوري، وأصبح الوضع يهدد بالانفجار.

دور رجال السناتو(مجلس الشيوخ) في ثورة نيقا:

بحلول الوقت الذي اعتلى فيه جستنيان العرش عام 527م كان الزرق والخضر يشكلون تهديدات للعاصمة، كما يتضح في أحداث 501 و513و 520 التي تبين أن لديهم أيضًا القدرة على إزالة الشخصيات السياسية من السلطة.

يرى [1] أن جستنيان قد اعتقد أنه للحفاظ على عظمة الإمبراطورية بصفته إمبراطورًا فإن مصالح حكومة الإمبراطورية يجب أن تكون قبل كل شيء؛ من أجل تحقيق ذلك أحاط جستنيان نفسه بنخبة من الإداريين، ووضع يوحنا الكابادوكي John of Cappadocia وزيرًا للخزانة، ويودايمون Eudaimon حاكمًا للمدينة، وتريبونيان Tribonian مشرّعًا. (انظر الشكل رقم 4)، بالإضافة إلى زوجته الإمبراطورة ثيودورا (انظر الشكل رقم 5)، التي كان لها تأثير على شخصية الإمبراطور جستنيان في تسيير الإمبراطورية البيزنطية في مجال العمل الاقتصادي والأزمات السياسية، وبمساعدة ثيودورا أثمرت جهود الإمبراطور جستنيان في كل شؤون الإمبراطورية، ليس على الصعيد السياسي فحسب بل في الجانب الدبلوماسي والمعماري كذلك، إضافة إلى دورها البارز في تجميع القوانين الرومانية، وعلى الصعيد الديني أيضا كان لها دورها البارز في السعي إلى التوفيق بين المذاهب الدينية المسيحية. ومن المعروف أن ثيودورا كانت تميل للمذهب المنوفستي، وهي في ذلك تتعارض مع سياسة جستنيان الذي اشتهر بتذبذب سياسته الدينية، فعلى الرغم من تمسكه بالمذهب الخلقدوني، فإنه قد أعطى للمنوفستية بعض الامتيازات [16].

الشكل رقم 4: يظهر فيه الإمبراطور جستنيان مع رجال البلاط

Metmuseum.org

الشكل رقم 5: صورة فسيفساء في كنيسة القديس فيتالي Vitale تعود إلى القرن السادس الميلادي، وتظهر فيها الإمبراطورة ثيودورا ترتدي الرداء الامبراطوري وتاجًا، وقد أحاط بها رجال البلاط.

Gregory, T. E. 2010 A History of Byzantium, Willy Blakwell, oxford, p.134

يضيف[16] نفَّذ يوحنا الكابادوكي- الذي لم يدع فرصة لخزانة الإمبراطورية البيزنطية أن تخلو من الأموال- 26 قانونًا جديدًا للضرائب يطبق على جميع المواطنين في الإمبراطورية، من الأفقر إلى الأغنى، مع إصدار قوانين ضريبية جديدة، اكتسب تريبونيان سمعة الجشع، ونظر عامة السكان له نظرة معادية نمَّت المشاعر الحقد والكراهية تجاه تريبونيان ويوحنا الكابادوكي من جانب الفريقيين، وكان الخضر مستائين جدًّا من قوانين الضرائب الباهظة وانزعج الزرق- الذين قام جستنيان بتمويلهم قبل أن يصبح إمبراطورًا- من فرض ضرائب عالية عليهم، وعند توليه العرش توقع الزرق أن يستمر هذا الأمر، فأثار عدمُ حدوثه استياءهم. كما أثارت سياسة يوحنا الكبادوكي سخط طبقة كبار الملاك وكان أغلبهم من رجال السناتو، كما أثارت سياسة تريبونيان غضب السناتو أيضًا عندما وضع قوانين جعلت من جستنيان السيد المطلق، وطوَّق إمبراطورية جستنيان بسياج قانوني.

حسب ما ورد عند [15]في الحادي عشر من يناير 532 م، بينما كانت الجماهير في ملعب قسطنطينية- وهو المكان الذي يهرع إليه أهالي قسطنطينية لمشاهدة سباق الخيل- وقد أوشك السباق على نهايته، صرخ أحد المتفرجين- وهو من حزب

الخضر– وطلب من الإمبراطور رفع الظلم الذي وقع عليه من أحد رجاله، فردَّ عليه المتحدث باسم الإمبراطور ردًّا قاسيًا، واتهم الخضر بأن حضورهم كان من أجل الشغب وليس السباق، واستمرت الملاسنة بين الطرفين، وعبَّر زعيم حزب الخضر عن استيائهم من محاباة الإمبراطور للزرق الذين كانوا إلى جانب المتحدث باسم الإمبراطور في أثناء الحوار منادين على الخضر بألقاب تحمل طابع الاستهزاء والإهانة، حينها وقف زعيم الخضر وقال:" ألا ليت ساباتيوس sabbatius لم يولد أبدا" وكان ساباتيوس والد الإمبراطور جستنيان. خرج الخضر مسرعين خارج الملعب موجهين كلمات لاذعة إلى الإمبراطوار الذي عدَّ خروجهم قبله صفعة موجهة إليه، والتقاليد تقتضي أن يخرج الإمبراطور قبل الجميع.

بدأت الثورة عندما أمر جستنيان بالقبض على سبعة من مثيري الشغب وإعدامهم شنقًا، وفي أثناء إعدامهم نجا اثنان منهم عندما انقطعت الحبال وسقطوا على الأرض أحياء، وكان لا بد من العفو عنهم حسب القوانين، لكن رجال الإمبراطور حاولوا إعادة شنقهم، فثار الشعب وتدخَّل رهبان دير القديس كونون Conon وأخذوا الرجلين إلى الكنيسة، وكان أحدهما من حزب الزرق والآخر من حزب الخضر، فاتحد الحزبان وثاروا ضد جستنيان[10].

يشكك [4] في أن الذي حدث يبدو صدفة؛ لأنه لا يمكن أن تكون الصدفة وحدها هي من تسبَّب في أحداث جسيمة شهدتها العاصمة لمدة أسبوع، يبدو أن هناك اتفاقًا مسبقًا بين الفريقين أو رؤساء الفرق على الثورة، لكن الشيء المؤكد أن الثورة حدثت من الشعب نفسه، ولم يكن لرؤساء الفرق أية سيطرة على الثورة إلا وجودهم الشكلي على رأس فرق تتحدث باسم الشعب.

يسرد [14]في كتابه التاريخ السري أنه بناءً على ما حدث قرَّر الفريقان أن يتحالفا، وفي الثالث عشر من يناير اندفع المتمردون من الخضر والزرق إلى مقرِّ مبنى حاكم المدينة لإطلاق سراح الرجلين، فلما لم يجدوهما أشعلوا النار في المبنى وامتدت النيران إلى البوابة البرونزية، ومجلس السناتو، وحمامات زيوكسيوس، وكنيسة آيا صوفيا(انظر الشكل رقم6)، وكانت الهتافات الوحيدة التي يمكن سماعها هي نيقا نيقا، أي النصر النصر. وصف [13]في كتابه (تاريخ الحروب العاصمة) الحدث بعبارة بليغة: "انتشرت النار في المدينة كما لو كانت قد سقطت تحت يد العدو".

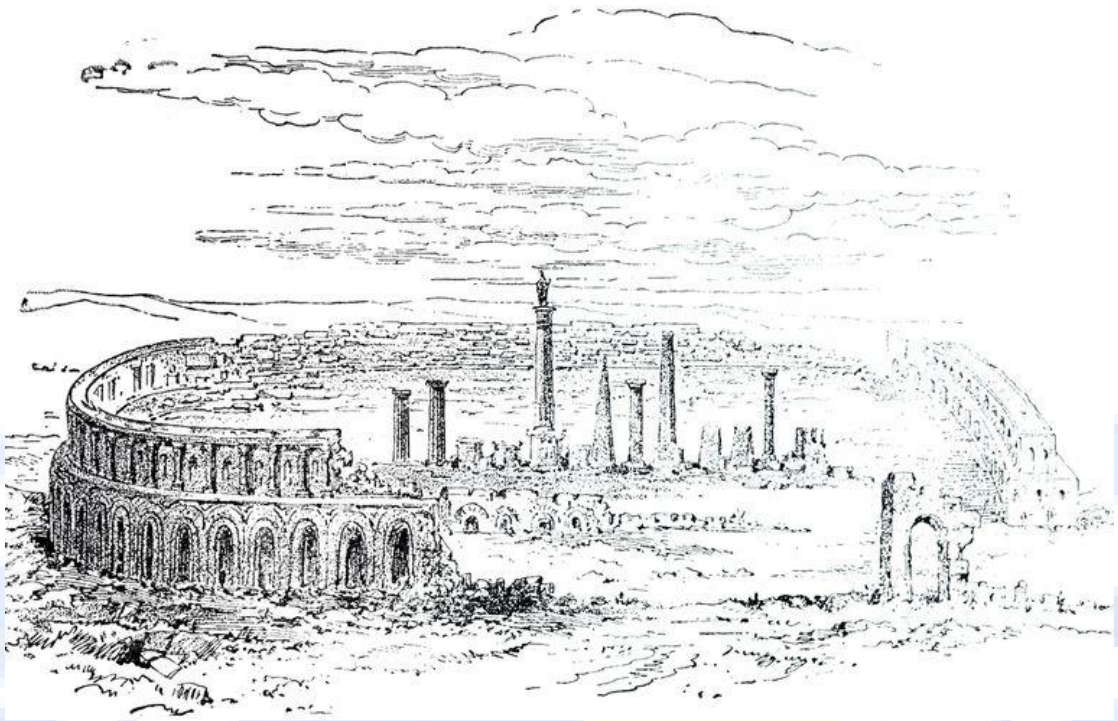

الشكل رقم6:صورة توضح اندلا ع النيران في قسطنطينية

Thoughtco.com

في اليوم الرابع من الثورة، الرابع عشر من يناير احتشد الثوار في ميدان سباق الخيل، وطالبوا بالفصل الفوري ليوديمون وتريبونيان ويوحنا الكباوكي، واتخذ جستنيان الأول موقفًا وسطيًّا، على عكس جستن الذي أرسل قواته على الفور في وقت مبكر من عهده، أو أناستاسيوس الذي يمكن القول إنه كان سيفعل كل ما هو ممكن للتصالح مع فرق السباق، التقى جستنيان بالزرق والخضر في ميدان سباق الخيل ووافق على مطالب المتظاهرين، وعزل يوديمون وتريبونيان ويوحنا الكبادوكى من أجل المضيّ قُدُمًا نحو السلام، ولكن ذلك جاء متأخرًا[16] ، وفي اليوم نفسه انضم بعض رجال السناتو للثورة، وتمكنوا من إقناع الثوار بالمطالبة باختيار إمبراطور جديد، ووقع اختيارهم على هيباتيوسHypatius ابن شقيق الإمبراطور أناستاسيوس[6]

يمكن أن تُعزى مشاركة السناتو في هذه الثورة في يومها الرابع إلى أن السناتو وجدوا في هذه الثورة فرصة للتخلص من جستنيان. في هذا الصدد يشير [4] أنه عندما تُوفي الإمبراطور أناستاسيوس دون أن يترك أبناء، وكان لشقيقه ثلاثة أولاد هم: هيباتيوس، وبومبي، وبربوس، الذين لم يعترضوا على إبعادهم عن العرش، ومارسوا حياتهم مع العامة. تجاهل الجيش والسناتو الإخوة الثلاثة واختاروا جستن، كان جستن فلاحا مقدونيًّا، ثم جاء إلى قسطنطينية وعمل جنديا بالجيش وتتدرج في المناصب العسكرية حتى أصبح رئيسًا لإحدى فرق الحرس الإمبراطوري. تُوّج جستن إمبراطورًا في سن متقدمة، وعرف عنه أنه كان جاهلا بأمور السياسة والدين. أقرَّ الإمبراطور جستن في وثيقة رسمية بأنه بنعمة الثالوث المقدس ورجال السناتو ومباركة رجال الجيش أصبح

إمبراطورًا، وبذلك أرادوا العودة إلى القرنين الأخيرين من العصر الروماني، عندها استولى السناتو على مقاليد الأمور، وفي عهد الإمبراطور جستن طلب السناتو من جستن أن يجعل من ابن أخته جستنيان وليًّا للعهد؛ ليكون رجلهم في المستقبل وأداة طيعة في أيديهم، وتمكنوا من إقناع الإمبراطور الذي توج جستنيان وعدَّه شريكًا له في الحكم. أصبح لسناتو أمل في أن يشارك في سياسة الإمبراطورية. ولم تمضِ ثلاث سنوات على إعلان جستنيان إمبراطورًا حتى تبيَّن للسناتو أن جستنيان ليس إلا إمبراطورًا رومانيًّا شعاره دولة واحدة وقانون واحد وكنيسة واحدة، وهو السيد الأعلى في الدولة والمشرّع الأوحد، وهذا يتعارض تمامًا مع أهداف السناتو[6].

كان جستنيان يدرك تمامًا ما يتطلع إليه السانتو، ولكن على حد تعبير [13] كان السانتو في عهد جستنيان "صورة معلقة على جدران الزمن، مجردًا من كل سلطان، لا يملك إصدار قرارا... يجتمع فقط من أجل استكمال الشكل العام، لا يُسمح لأي من أعضائه بنبس شفه... يُصدِّق في النهاية على كل ما يريده الامبراطور".

شهدت قسطنطينية في الخامس عشر، والسادس عشر، والسابع عشر حربًا أهلية بين قوات القائد بليزاريوس بعد عودته للتوِّ من الحروب الفارسية والقائد منداس Mandas اللذين وصلا بجيوشهما إلى قسطنطينية وقاما بمحاربة أهالي قسطنطينية، كما ذكر [14] "تركزت كل آمال الإمبراطور على بيليزاريوس الذي جلب معه جيشًا قويًّا ومهيبًا" ولكن بيليزاريوس لم يستطع أن يحقق أي انتصار؛ فالشعب كله كان ثائرًا، وبعد ثلاثة أيام انسحب بليزاريوس بقواته من شوارع قسطنطينية، وعاد بقواته لحماية القصر الإمبراطوري، ووقعت المدينة في قبضة المتمردين. إزاء هذه الفوضى، شعر جستنيان بأن هناك مؤامرة تحاك ضده – خاصة بعدما خذلته فرق الحرس الإمبراطوري – وأن هناك اتفاقا سريًّا بين أعضاء السناتو وهيباتيوس وشقيقه بومبي Pompeius – اللذين كانا يعيشان في القصر منذ وفاة عمهما – وزعماء المتمردين، وعليه في اليوم السابع عشر استدعى جستنيان الشقيقين وبعض أعضاء مجلس الشيوخ وطلب منهم مغادرة القصر[12] .

يذكر [14] كيف حاول جستنيان مجددًا في يوم الثامن عشر من يناير استرضاء الثوار، وقد أعلن مسؤوليته عما حدث وأسفه عن عدم الاستجابة منذ البداية إلى العفو عن الرجلين اللذين سقطا من حبل المشنقة، وأصدر قرار عفو عام عن كل المشاركين في الشغب، غير أن انضمام رجال السناتو إلى الثوار، وكذلك سكان الريف الذين أرهقتهم الضرائب الفادحة زاد من الغليان.

وفي يوم 25 يناير والثورة الشعبية مازالت مستمرة والشعب مازال ثائرًا، وبينما كان جستنيان ينتظر تقرير مصيره، نادى المتمردون بهيباتيوس ابن شقيق أناستاسيوس إمبراطورًا، على الرغم من أنه لم يكن لدى هيباتيوس أية نية للمشاركة في الخيانة ضد جستنيان الأول[16]، وأُجبر على دخول ميدان سباق الخيل، ووضعه في كاتيسما kathisma (مقصورة الإمبراطور جستنيان الأول)، وتُوِّج بسلسلة ذهبية، وفي أثناء تتويج هيباتيوس في ميدان سباق الخيل خطَّط الذين بقوا في القصر الإمبراطوري (جستنيان، وبيليزريوس) للهروب، والسماح للغوغاء بانتخاب هيباتيوس، ثم العودة لاحقًا لاستعادة منصبه كإمبراطور للإمبراطورية

البيزنطية[1]، ورفضت ثيودورا الهروب، وقالت خطبتها الشهيرة التي ورد نصها عند[13]: "من المستحيل على المرء، وقد جاء إلى هذه الدنيا أن يبقى حيًّا أبد الدهر، فلابد أنه سوف يموت، أما الذي يتولى الحكم فلا يجوز أن يقبل الفرار... فإذا شئت أيها الإمبراطور أن تنجو بحياتك فليس هناك ما يمنعك من ذلك؛ فالمال وفير، وهناك البحر والسفن، إنما ينبغي أن تفكر وقد أمنت إلى مأواك فيما إذا لم تكن تؤثر الموت على الحياة، أما أنا فلا زلت أؤمن بالمثل القديم بأن الثوب الامبراطوري هو خير الأكفان". يرى [16] أنه كان لكلمات ثيودورا أثر كبير على الامبراطور جستنيان، وأنه أمر بهجوم على المتمردين، وتمكَّن القائد نارسيس Narsis بما أجراه من مفاوضات باستمالة زعماء الزرق بالأموال والهدايا، وقد نجح في ذلك، وانسحب الزرق من الهبدروم تاركين الخضر يواجهون المصير وحدهم، وبذلك قضى نارسيس على وحدة الثوار.

وفي الوقت نفسه هاجم بليزاريوس ميدان سباق الخيل، حيث كان هناك ما لا يقل عن 3000 رجل يستعدون للهجوم على القصر، والزرق والخضر يهتفون لإمبراطورهم الجديد هيباتيوس، تسلل بليزاريوس إلى كاتيسما حيث تمركز الخضر حول هيباتيوس، وبأمر من بليزاريوس اقتحمت القوات الهبدروم، ومع اقتحام الجنود من كل مدخل أغلق المزيد من الجنود طرق الخروج حتى لا يتمكن أحد من الهروب[7]، حسب ما ورد عند [14] جرت مذبحة راح ضحيتها آلاف السكان، وقبض على هيباتيوس وبومبي وأُعدما في اليوم التالي، وأُلقي بجثتيهما في البحر، كما تمكن من القبض على المشاركين في الشغب من أعضاء مجلس السناتو، وكان عددهم ثمانية عشر، وصادر ممتلكاتهم.

يمكن أن يُعزى الانتقال من الفشل إلى النجاح في قمع أعمال شغب نيقا إلى مجرد حقيقة أن ثيودورا فضلت كفنًا أرجوانيًّا على كفن أبيض، لو هرب جستنيان لكان مسار الإمبراطورية البيزنطية قد تغير بشكل جذري، وكذلك بولاء بليزاريوس وشجاعته التي مهَّدت الأرض لجستنيان لتنفيذ مشروعاته وتحقيق طموحاته دون أن يجد أية معارضة فيما بعد.

قسطنطينية الجديدة:

حتى لا تتكرر أحداث نيقا منع جستنيان حفلات سباق الخيل في الهبدروم، ووضع رقابة مشددة على الفرق الرياضية في أعقاب أعمال شغب نيقا، وعلى الرغم من مشاركة جميع فرق سباق العربات الأربعة داخل ميدان سباق الخيل في سباقات تنافسية خلال القرن الثاني عشر، فإن قوتهم باعتبارهم كيانات اجتماعية أو سياسية كانت قد توقفت منذ عهد جستنيان[14]. يذكر[5] أنه في غضون أربعين يومًا من إعدام هيباتيوس وبومبيس Pompeius قد أعاد جستنيان تريبونيان ويودايمون إلى مناصبهم الأصلية، ومنح يوحنا الكبادوكي منصبه حاكمًا إمبراطوريًّا مرة أخرى، وعفا عن المتآمرين من أعضاء مجلس الشيوخ.

أولى الإمبراطور جستنيان اهتمامًا بالتجارة الخارجية، وحرص على تخليص الإمبراطورية من احتكار الفرس، والتمس طريق جديدًا إلى الصين والهند لا يخضع للنفوذ الفارسي الذي كان يحتكر كل أنواع التجارة من حرير وأحجار كريمة وغيرها، وأراد الإمبراطور أن يتخذ من البحر الأحمر طريقًا للوصول إلى الهند، وعليه أنشأ جستنيان حامية عسكرية في العقبة من خلالها تنتقل التجارة منها برًّا إلى البحر المتوسط عن طريق سوريا وفلسطين، كما أنشأ حامية أخرى في القلزم (بالقرب من السويس حاليًّا)

حيث تُجبى فيها الضرائب عن السفن التجارية المارَّة من هناك، كما اتصل جستنيان بالأحباش في مملكة أكسوم، وشجَّعهم على شراء الحرير من الهند وبيعه إلى الأمبراطورية البيزنطية، بيد أن تجار الحبشة لم يتسنَّ لهم منافسة الفرس، وظل الأخير وسيط السلع التجارية في الشرق، لقد حالف الحظ الإمبراطور جستنيان عندما تمكن بعض الأشخاص من معرفة سر صناعة الحرير وتهريب بيض دودة القز إلى الإمبراطورية البيزنطية، وبذلك أقاموا أُسسًا لصناعة الحرير، وطوَّروا هذه الصناعة، وأنشأوا مصانع في قسطنطينية وأنطاكيا وبيروت والإسكندرية[16].

ويضيف [16]: رأت حكومة جستنيان أن طبقة كبار التجار هم ألدُّ أعدائها، حيث ورد في أحد قوانين جستنيان إشارة إلى سوء أحوال أملاك الحكومة والأملاك الخاصة في آسيا الصغرى، حيث انصرفت الأخيرة إلى اغتصاب أراضي الإمبراطورية ورشوة جباة الضرائب، كما أحاطوا أنفسهم بحرس خاص، وقاموا بإسكات كل من يحتج عليهم بالمال، يتفق [2] مع [16] حل هذه المسألة وعقب ثورة نيقا عدَّل جستنيان نظام الوراثة، وأجبر عددًا من مُلَّاك الأراضي على وقف أملاكهم للإمبراطورية، وصادر العديد من الممتلكات لعدم ثبوت ملكيتها، كما قام بمحاكمة دينية تهدف إلى حرمان الكنيسة من ممتلكاتها وتحويل مواردها إلى خزانة الدولة، وعلى الرغم من كل هذه الإجراءات لم يتمكن جستنيان من القضاء على طبقة الملَّاك.

رأى جستنيان أن إصلاح أحوال الإمبراطورية لا يحدث إلا بقيام نظام إداري مركزي، واختيار أفضل الموظفين الذي عُرف عنهم الانضباط والنزاهة، كما أدرك جستنيان أهمية الوضع المالي في الإمبراطورية، فأصدر مجموعة من القوانيين يُلزم فيها رعاياه بدفع الضرائب للحكومة، وبذلك ضمن دخول الأموال إلى خزينة الإمبراطورية بعيدًا عن ظلم الجُباة وابتزازهم للأموال. أصدر الإمبراطور في عام 535م مرسومًا على درجة كبيرة من الأهمية، أمر فيه موظفيه بالإحسان في معاملة السكان، ورفع ما وقع عليهم من ظلم، ومراعاة العدالة في إصدار الأحكام القضائية والإدارية، كما ينصُّ القانون على محاربة الجريمة ومعاقبة المجرم بما يقتضيه القانون، وفي الوقت الذي شدَّد فيه القانون على منع الموظفين من الرشوة ألزمهم فيه مراعاة عائد الحكومة، والعمل على زيادة دخل الخزانة من الأموال، وأكد دفع الضرائب في وقتها. ومن أجل أن يقلِّل جستنيان من نفقات الدولة جمع الأقاليم الصغيرة ووضعها في وحدات كبيرة، وبذلك قلَّل من أعداد الموظفين وجعل السلطات في يد موظف واحد يُلقب بـPraetor [16].

أصدر جستنيان تعليمات إلى الحكام بالمحافظة على صيانة الجسور والطرق وخزانات المياه وأسوار المدن، كما أعاد جستنيان بناء كنيسة القديسة آيا صوفيا التي أُحرقت خلال أعمال شغب نيقا(انظر الشكل رقم 7)، كما جعل جستنيان مشروعه الشخصي لإعادة بناء المعبد الجديد الذي أصبح فيما بعد "معبد الحكمة المقدسة"؛ لإحياء ذكرى الأحداث في عام 532، وقد تم الانتهاء منه في عام537[1].

الشكل رقم 7: مخطوط يوضح إشراف الإمبراطور جستنيان على بناء آيا صوفيا

Amazon.com

اهتم جستنيان بجمع القوانين القديمة وتعديلها وتبويبها، ففي عام 529 عهد إلى المشرّع تريبونيان بإعداد لجنة مكوَّنة من عشرة استشاريين تحت إدارته، ونجم عن ذلك صدور مجموعة من القوانين عُرفت بمجموعة جستنيان codex، تألفت من عشرة كتب، واشتملت على كل القوانين التي صدرت من عهد الإمبراطور هادريان Hadrian (117-138) إلى عهد جستنيان، وفي عام 530 كُلِّف تريبونيان بتأليف لجنة من كبار رجال القانون، وتمخض عن هذه اللجنة إصدار المصنَّف المسمى بالموجز الذي كان المرجع الأساس في مسائل القانون المدني، وفي عام 534م صدرت نسخة منقحة من مجموعة قوانين جستنيان التي صدرت في عام 529 تقع في اثني عشر كتابًا أُطلق عليها اسم Codeex Repetitae Praelections، وبصدور هذه النسخة استُبدل قانون عام 529م بهذه القوانين الجديدة.

وفي نهاية حكم جستنيان ظهرت سلسلة من القوانين عُرفت باسم المتجددات Novellae Leges ولم ينتهِ عهد جستنيان إلا والقانون البيزنطي منقَّحٌ ومتماشٍ مع العصر [16].

وعلى الرغم من أن إصلاحات جستنيان لم تصمد أمام الزمن فإنه يمكن القول إن فترة حكم الإمبراطور جستنيان كانت حافلة بالإنجاز الأدبي والفني والمعماري، كما أثبت جستنيان بعد ثورة نيقا أنه قادر على إعادة بناء قسطنطينية، وخلق روائع مثل آيا صوفيا والعديد من المباني الأخرى.

الخاتمة

تُعد أحداث شغب نيقا من أشهر أحداث الإمبراطورية البيزنطية لأسباب ليس أقلها عدد القتلى المروّع و الدمار الذي حلَّ بمباني قسطنطينية، وأنها ثورة زعماء الفرق الرياضية فحسب، بل إنها بدأت اندلاعًا منفردًا من الفرق الرياضية ثم أفلتت من قادة الفرق إلى طبقة معينة.

كانت هذه الفرق في بادي الأمر فرقًا رياضية، ثم تحولت بمرور الوقت إلى أحزاب سياسية مع الاحتفاظ بمميزاتهم الرياضية، وأصبحوا يشكلون خطرا على الحكومة. لم يكن شغب نيقا ثورة عامة بل كان مؤامرة ضد الإمبراطور جستنيان الأول، بتعليمات من رجال السناتو الذين أفصحوا عن رغبتهم الحقيقية، وأزاحوا القناع عن وجوههم، وذلك عندما قاموا بتحريض العامة الذين انتشروا في قسطنطينية على المواجهات الدموية في العاصمة.

ويمكن القول إن الأيام الثلاثة الأولى للثورة كانت بيد زعماء الفرق الرياضية، وكانت مطالبهم تقتصر على إطلاق سراح الرجلين الناجيين من حبل المشنقة، وعزل كل من يوحنا الكابادوكي، ويوديمون، وتريبونيان. وفي اليوم الرابع أفلتت الثورة من يد المتمردين ليد رجال السانتو، الذين دفعتهم العوامل السياسية والاقتصادية لاستغلال ثورة نيقا، وكان هدفهم هو الإطاحة بجستنيان الذي استمد حكمه بقوة القانون دون أي اعتبار لهم، كما أرادوا أيضا إسقاط نظام الحكم نفسه.

يبدو أن كل سبل السلام التي قام بها جستنيان من أجل إرضاء المتمردين لم تفلح، وأدرك حينها أن الثورة كانت مجرد مؤامرة دبرها هيباتيوس بمساعدة الثائرين، وأن زعامة الثورة لم تكن بيد الزرق والخضر بل بيد شخصيات من رجال السناتو، وعليه قرَّر الإمبراطور إخماد الثورة ونجح بمساعدة زوجته ثيودورا وقائده بليزاريوس.

قُضِيَ على ثورة نيقيا بجرأة ثيودورا؛ لأنه لولا كلمات ثيودورا التي عبرت بها عن موقفها من الثورة، وأنها لن تلجأ إلى الهروب، لكانت الثورة قد نجحت وهرب جستنيان، كما كان لشجاعة بليزاريوس الفضل؛ إذ لم يخيب ظن الإمبراطور في القضاء على الثوار.

وعلى الرغم من الدمار الذي حل بقسطنطينية فإن هذه الثورة كانت نقطة تحول بارزة في جميع نواحي الحياة في الإمبراطورية، فكانت القوانين التي أصدرها جستنيان حجر الزاوية في تثبيت دعائم النظام السياسي والاقتصادي، كما كانت الإنجازات المعمارية التي شُيِّدت ركائز أساسية لإرث جستنيان.

المراجع

1-Baker, G.P (2002). Justinian: The Last Roman Emperor, Littlefield Puplishing Group, New York, pp. 80-83, 94, 99.

2-Boak, A.E.R. (1928). "Byzantine Imperialism in Egypt", Amercan historical revriew,Vol.34, No.2, Oxford University Press, Oxford, pp.1-8.

3-Bury, J.B.(1963). Imperial Administration System,Cambridge University Pree, Cambridge p.105.

4-Bury, J.B. (2013). History of the Later Roman Empier from the Death of TheodosiusI to the Death of Justinan, Vol.2, Dover Puplictions, INC NewYork, p.18, 40.

5-Cameron. A.& Rand. W.(1976). Circus Factions: Blues and Greens at Rome and Byzantium, Oxfored Clarendon Press, Oxfored, pp.45-55.

6-Diehl, C.H. (1972). Byzantine, Greatness and Decline, trans. Noami Walford, New Brunswick, p.30.

7-Geatrix, G. (1997)."The Nika Riot: A Reappraisal." The Journal of Hellenic Studies, Vol.117, Council of the Society, London,pp 60-86.

8-Gregory, T. E. (2010). A History of Byzantium, Willy Blakwell, Oxfored, p.134.

9-Humphrey, J H. (1986).Maximus Chariot Racing in Ancient Rome, University of California press, Berkeley and Los angles, p.59.

I0- Malalas, J. (1831). Chronographia, edit , L.Dindorfius, Bonnae,Impensis E. Weberi. Pp.473-474.

11-Ostrogoroski.G. (1969).History of the Byzantine State, Rutgers University Press, p.62.

12 -Rosen, W. (2007). Justinian's Flea: The First Great Plague and the End of the Roman Empire, Penguin Books, New York, pp.92-98.

13-Procopius, C. (1914). History of the Wars Trans.Dewing H.B,. Vol.I, Macmillan, New York, pp. 223,231-232.

14-Procopius, C. (1961). The Secret History, trans. Richard Atwater, Ann-Arbor, University of Michigan Press, pp.138, 140-144.

15-Theophanes, I (1839) Chronographia. Vol.1, Bonnae: Impensis E. Weberi, pp.281-282.

16- Vasiliev. A. A. (1958).The History of the Byzantine Empire, Vol.2,the University of Wisconsin Press, Wisconsin,pp. 146-147,155-159,163-168 .